الاحتفالات الدينية في الجزائر بين الطقوس العقائدية والتعبيرات الاجتماعية " منطقة تيميمون أنموذجا "

Religious celebrations in Algeria between religious rituals and social expressions "Study in Timimon"

طالب دكتوراه: إسماعيل شماخي موسى [1]، أ.د / جمال معتوق [2]

[1] جامعة علي لونيسي، الجزائر، **Mail :**ismailchemakhi88@gmail.com

[2] جامعة علي لونيسي، الجزائر.**Mail :**MATOUK59@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2018/6/19 تاريخ القبول: 2018/10/10

المؤلف المرسل: شماخي موسى إسماعيل، **الإيميل:** ismailchemakhi88@gmail.com

الملخص:

لا يمكن لأي باحث فهم مجتمع معين دون أن يتعمق في دراسة قيمه، باعتبارها المتحكم في سلوكه وتصرفاته، فمن خلالها يمكن تمييز هذا المجتمع عن ذاك، ولقد اشترك العلماء الانثروبولوجيون جميعا في محاولة فهم المنظومة القيمية للمجتمعات، من خلال التطرق إلى جذورها ومراحل تطورها التاريخية، كمالينوفيسكي وكارل ماركس، ومورغان وغيرهم.

إن الاحتفالات الدينية كجزء من هذه المنظومة القيمة للمجتمع الجزائري، تحوي عديد الممارسات الدالة على تشابك وتداخل القيم الدينية والثقافية والاجتماعية، وترابطها ببعضها البعض، فهي طالما شكلت الحاجز الواقي أمام المحاولات التغريبية والإستيلاب الثقافي، إدا ما ربطناها بالتاريخ بفضل تحصينها ضد الاستعمار الفرنسي وضد الغزو الثقافي المسيحي، طيلة قرن وما يزيد عن ثلاثين سنة إستدمارية، وقد تكون الحصن المتين أمام مظاهر العولمة المتعددة في عصرنا الحالي.

الكلمات المفتاحية: الاحتفالات الدينية؛ الطقوس؛ التعبيرات الاجتماعية.

Abstract:

Any anthropologist can not understand a particular society without delving into the study of its values, as it controls its behavior , through which it can be distinguished from other. All anthropologists have joined together in trying to understand the value system of societies by addressing their historical roots , Kemalinovski, Karl Marx, Morgan and others.

The religious ceremonies as part of this system of value to the Algerian society contain many practices that involve the intertwining of religious, cultural and social values and their interrelationship. They have always constituted the protective barrier to the attempts of Westernization, to its immunization against French colonialism and cultural invasion For over a century and over thirty years of destruction, and may be the strong bulwark against the various manifestations of globalization in our time.

Keywords: religious ceremonies; rituals; social expressions.

مقدمة:

تعتبر ظاهرة الاحتفالات الدينية جزءا من الممارسة الشعبية الدينية، وهذه بدورها تمثل جزءا من نظام الدين في ثقافة المجتمع الجزائري، إن أهم ما يميز ظاهرة الاحتفالات الدينية أنها تجدرت في السلوك الإجتماعي والمخيال الشعبي، لقد أصبح أداؤها ملتبسا بكل السلوك الإجتماعي وأنساقه الثقافية وهو يتم بشكل لا شعوري أي بشكل لا يستدعي تفكيرا حول مغزاه أو مدى معقوليته وعليه فدراسة هذه الظاهرة أنثروبولوجيا يقتضي التركيز على جانبين هامين فيها:

- الأول: كونها سلوك و تعبير عقائدي يترجم عن بعض الحاجات الفردية والنفسية.

- الثاني: إنها ظاهرة اجتماعية ذات أصول وجذور، امتدت فروعها وتشعبت وتشابكت لتصبح راسخة في اللاّشعور الفردي وجزءا من نسق الدين وعنصرا من عناصر الثقافة في المجتمع الجزائري.

I. الاحتفالات الدينية تراث شعبي

يزخر التراث الشعبي بعادات وتقاليد شعبية كثيرة ساهمت فيها الأجيال عبر عصور مختلفة اتخذت صبغة طقوس مقدسة أصبحت بذلك مشتركة بين أبناء المنطقة أو الجهة و قد تتكرر عدة مرات وفي أماكن مختلفة. أضحت هده العادات راسخة في نفوس الأجيال تتوارث جيل عن جيل و شكلت تراثا شعبيا يشترك فيه عامة الناس يطبع سلوكهم و أفعالهم و حياتهم اليومية و يؤثر فيهم فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الوسائل لأنه يجسد ماضيهم و ماضي أجدادهم، [1] ويمثل بالنسبة إليهم الإطار العام الذي يتحركون فيه وقد يأخذ البعض من هذه العادات والتقاليد طابع القداسة ويصبح المحافظة عليها ذا أهمية بالغة بالنسبة لجميع أفراد المنطقة أو الجهة " القبيلة ". [2]

II. الاحتفالات الدينية الطقس والظاهرة

إن كلمة طقس " Rite " مشتقة من الكلمة اللاتينية " Ritus " وهي عبارة تعني عادات وتقاليد مجتمع معين كما تعني أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي، (3) تكمن دعوة الطقس في إثبات استمرارية الحدث التاريخي الشهير فهو يميل إلى تكريس ديمومة الحدث الإجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده فهو استنادا إلى ذلك إعادة خلق وتحيين لماضٍ غامض غالبا لكنه يأخذ معنى في الدين، فيستخدمونه على أنه فعل ديني. [4]

يشير" فان درلو" " Van Derlew " عندما يتحدث عن الطقس بأنه إحياء وتحيين لتجربة مقدسة ويضيف بأن الطقوس أساطير تتحرك لأن الأسطورة هي مؤسسة الفعل المقدس فهي تسبقه وتضمن بقاءه وعليه إن ممارسة الطقس التقليدي تبدو قريبة في

الوسط الريفي إلى المعتقد الديني أكثر منه في الوسط المدني، ومن جهته يرى " نور الدين طوالبي" أن التطبيق الشامل للطقوس العامة ليس قبل كل شيء سوى برهان إضافي على التعلق الشعبي بالدين فهو في ذلك مقبول شرعا باعتباره إرادة جماعية تسعى نحو إعادة الاعتبار للتقاليد وعلى الأخص للإسلام. (5)

III. دور الاحتفالات الدينية ووظائفها في المجتمع

يزخر التراث الشعبي بعادات وتقاليد شعبية كثيرة ساهمت فيها الأجيال عبر عصور مختلفة واتخذت صبغة طقوسا مقدسة كالذبح وهو ما يقابله عند العامة ما يعبر عنه بالذبح على العتبة عند دخول الدار بعد بنائها أو شرائها أو النشرة وهي في لسان العوام ما يتخذ من ذبيح من الدجاج غالبا تقربا إلى الجن كي يرفعوا داءهم عن المصاب بهم ولا يذكرون اسم الله على الذبيحة ارضاءا للجن، (6) وضمن هذه الطقوس يمكن الإشارة إلى إقامة الزردات بمناسبة الختان أو الاحتفال بالزواج مع ما يتطلبه ذلك من إتباع طقوس معينة لإقامة العرس كليلة الحناء والعادات المتصلة بها، و يوم العرس وما يتخلله من رقص إلى غير ذلك من الأمور التي أصبحت مشتركة بين أبناء المنطقة أو الجهة وقد يتكرر الفعل عدة مرات وفي أماكن مختلفة وهناك عادات أخرى كاتخاذ المزارات والتبرك بها وتعليق الخرق على أشجار السدر والبطم و تقديم الشموع و المباخر إلى الأضرحة. (7)

وفي المعتقدات العامة فإن الولي حينما يموت تظل روحه تنتقل بكل حرية في كل مكان ولقضاء حاجة فعلى الطالب أن يستنجد باسمه ليتم له ما أراد وهذا الفعل كثيرا ما يلجأ إليه الناس أثناء وقوع المصائب والكوارث فيستنجدون بالولي الصالح سلطان الأولياء وقد أضحت هذه العادات راسخة في نفوس الأجيال تتوارث جيل عن جيل وشكلت تراثا شعبيا يشترك فيه عامة الناس يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية ويؤثر فيهم فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الوسائل لأنه يجسد ماضيهم وماضي أجدادهم ويمثل بالنسبة إليهم الإطار العام الذي يتحركون فيه، ولقد أخذ البعض من هذه العادات والتقاليد طابع القداسة وأصبح المحافظة عليها من الأهمية بمكان بالنسبة لجميع أفراد القبيلة فالاحتفال السنوي الذي يقـام على شرف شيخ الزاوية أو صاحب الضريح كثيرا ما يشكل ظاهرة

مقدسة بالنسبة للقبيلة والتي لا يجب تركها بل إقامتها في الوقت المحدد مما يؤدي إلى ترسيخها في أفكار البسطاء كواجب مقدس اتجاه الولي. (8)

1. الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

إن هذا الاحتفال، رغم أنه يتوافق والمولد النبوي الشريف، نرى فيه تجسيدا لطقوس التبرك بالأولياء، يقوم به أشخاص من سلالة الولي والتابعين له حيث يأتون للزيارة بلوازم التنظيم، (9) ومنه فالاحتفالات الدينية كطقس نجدها في الجزائر تأخـــذ هالة روحانية تتمثل في شيء مقدس وفي ممارســـات تنم عن اعتقادات أقل ما يقال عنها أنها تكفير عن الخطايا والتوسل إلى الله لرفع المظالم إن المقدس كظاهرة اجتماعية فهو محكوم بالدلالات والرموز التي تتشكل بفعل المخيلة الاجتماعية. (10)

رغم ذلك فإن مفهوم الاحتفالات الدينية لم يحسم فيه بعد، نظرا لغياب الدراسات الأنثروبولوجية الجادة في هذا المجال إلاّ أنه لا يستبعد فرضية أن تكون الاحتفالات الدينية حديثة العهد ترتبط بسقوط غرناطة وبأهلها " الموريسكيون " الذين هجروا الأندلس واستقروا بشمال إفريقيا بما في ذلك الجزائر، (11) وباتت ظروفهم الجديدة تحتم عليهم تحديد موعد للتلاقي وكان ذلك مع نهاية فصل الصيف وبداية فصل الخريف وعند التقاء الجموع كانت تنصب الخيام وتذبح الذبائح تتخللها قراءات شعرية وموسيقى ورقص الذي اشتهر به المجتمع الأندلسي خاصة في مجال التوشيح والزجل وغيرها من الفنون وعند انتهاء اللقاء الذي كان يدوم لأيام ويأخذ شكل الاحتفال الشعبي تفترق الوفود ضاربة لنفسها موعدا للعام المقبل في نفس الموسم والمكان كما يطلق عليها في بعض المناطق " الوعدة " ربما كانت في الأصل " الوعد " ثم تأنثت التسمية مع مرور الزمن تماما مثل ما تغيرت أمكنة وأزمنة حدوثها مع تغيير أحوال المجتمع الجزائري. (12)

2. ظاهرة الزردة

إن ظاهرة الزردة عادة من هذه العادات التي ارتبطت بالتراث الشعبي وهي في الواقع ظاهرة عامة عرفها المجتمع الجزائري على اختلاف تسميتها من منطقة لأخرى، وقد انتشرت هذه الظاهرة في القرى والمدن حيث عمل الناس على إحيائها في مواسم معينة واستمروا في إقامتها اعتقادا منهم أن عدم إقامتها قد تؤدي إلى تأخير نزول الغيث أو زوال البركة فديمومة هذه الظاهرة ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع الإجتماعي للناس الذي يرتكز بدوره على الفلاحة المورد الأساسي للفئات العريضة من السكان، [13] وعليه فهي مؤطرة بالزمان والمكان، ومن هنا نؤكد الدور الذي لعبته ولا زالت تلعبه الاحتفالات الدينية في الحفاظ على الشخصية الوطنية وعلى التماسك الإجتماعي للسكان، وذلك من خلال الوظائف التي اطلعت بها أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر ففي مقابل وظائف الهياكل الحكومية للاستعمار الفرنسي حافظت على عناصر وأدوار خاصة بثقافة الأهالي وقيم و تراث الأجيال السابقة لتشكل هوية مختلفة كل الاختلاف عن هوية الثقافة الغربية التي يحملها المستعمر والتي يريد أن يحل محل الثقافة المحلية كما استطاعت أن تصون عناصر أساسية في التراث الشعبي وتزيد من ترسيخها في أفكار الناس بكيفية مكنتهم من مقاومة الغزو الثقافي الاستعماري وحافظت على التواصل والتلاحم بين أفراد الشعب. [14]

IV. الاحتفالات الدينية في منطقة تيميمون

وفي الأخير وجب أن أشير إلى الممارسات الاحتفالية الدينية الشعبية في منطقة تيميمون وما جاورها، كالآتي:

1. احتفالية السلوك والحفوظ

من الأمور التي تظهر اهتمام أهل المنطقة بالقرآن الكريم، إقامة الاحتفالات للتلميذ الذي يسلك سلكة واحدة على القرآن، بحيث تقام له تظاهرة احتفالية بالقصر، ومن مظاهر ذلك، ارتداؤه للملابس الجديدة البيضاء، ثم يؤتى بالتمر والحليب، ويكتب له الشيخ في لوحه مطلع ثمن يستبشرون بسورة آل عمران، وفي حالة عودته راجعا على القرآن نزولا تسلسليا، من سورة البقرة إلى سورة الناس، تقام له احتفالية أخرى تسمى الحفوظ،

وهي أكبر في طقوسها من السلوك، حيث يدعى الأحباب حتى من خارج القصر، ويطعمون الطعام، بعدها يطوف بالمقبرة، وقد يخصص له والده قواريط، أو حبات من ماء الفقارة، تشجيعا له على هذا الإنجاز.

2. احتفالية الختان

لقد جرت العادة بأقاليم توات، أن الطفل إذا ما وصل لوقت الختان، تقوم فرقة قرقابو لعبيد، بإقامة الاحتفال له، وتحنيته بالحناء، ويلبس ملابسه الجديدة البيضاء، ويوضع له الكحل في عينيه، وفي الصباح يأتي الزيان بموسه التقليدي، فتوضع له بيضة في فمه، ساعة القيام بعملية الختان، حيث تقدم له وجبة خاصة تسمى المردود، وتغني النساء مع الزغردة قائلات:

"المختار يا المختار ... الحمد لله على دين الإسلام".

3. احتفالية النفاس بوضع المرأة لمولودها

تسمى بالنفسة، يقام احتفال كبير صباح ذلك اليوم، لوضع ما يسمى بـ «التسمية»، ويحضر كذلك أطفال المدارس القرآنية بعد انتهاء دراستهم، ليقدم إليهم التمر، والحليب، وبعد انتهائهم وانصرافهم يرددون:

"قاري الستين ... ايعملوا من العايشين"

4. للمولود المريض أو المعاق:

إن ولد طفل جديد، وكان مريضا، أو معاقا، وظهر ذلك عليه تتكفل مجموعة من النسوة بملء قفة من الحلويات، و وضعه فيها، ثم يتجولون به عبر منازل الحي، وهن يرددن ما يلي:

"يا عماتو يا خالاتو ... ساووا ليه رجيلاتو"

5. احتفالية تؤدى عند اكتمال عدة المرأة المتوفى زوجها (الرابطة)

في منطقة توات يطلق على المرأة المتوفى زوجها بـ " الرابطة "، فهي هنا تشبه المرابطين الذين ربطوا أنفسهم لعبادة الله سبحانه وتعالى، وتترك كل ملذات الحياة، وهنا بعد إكمال الرابطة عدتها يقام لها احتفال كبير تغير من خلاله ملابسها بعد خروجها مع النسوة

لمكان مخصص، لذلك يطلق على هذه العملية محليا بأنها " تلوح لباسها "، وبهذا يردد النساء عند خروجهن مع الرابطة:

"أعطوا الطريقْ لمسعودة"

وفي منطقة تيميمون وضواحيها، يقال نفس الأغنية، غير أن ذلك باللهجة الزناتية فيقولون:

"أوشتْ آبريـد"

وبعد انتهاء ارتدائها لملابس زاهية اللون تعبيرا عن انتهاء مدة الحزن، يفسح المجال لها للتعبير عن سعادتها، كما يجول بها النسوة كامل أنحاء البلدة مثل العروس، ليعيدوها إلى منزلها بعد غروب الشمس.

6. احتفالية الأعراس

تعتبر الأعراس بمنطقة توات، من أبرز المظاهر الاجتماعية التي يظهر فيها الفرح، والتكافل الاجتماعي، ففي العادة أنه إذا ما اقترب العرس، وذلك قبل ثلاثة أيام تقام احتفالية الطبل للأيام الثلاثة التي تسبق العرس، بحيث تصاحب الأفراح كل مراحل وأيام العرس. فهي تعبير عن الفرح، و السعادة، و عادات تباريك العروس منذ خروجها من بيت والدها إلى حين دخولها بيت زوجها، ومما يردده النسوة في الأعراس

نذكر: "بسم الله اللي فيْ لحتو فيك يا عتبة دار بويا ... يعملها لالة خضارة امبروكة عليه"

ومن أغاني النسوة بتيميمون باللهجة الزناتية هو قولهم:

"آيما هاما آيمو... أو تنابينا لاله فاطنه""تولي آجناْ آتظال سيقشوا... بنينسْ ايخالفن".

V. خاتمة

إن التقاليد والعادات الجزائرية جزء من القيم الدينية التي تشكل الإطار العام الذي يتحرك فيه سلوك الأفراد، وتنعكس على تصرفاتهم، فلا يمكن تصنيفها إلى تقاليد إيجابية وأخرى سلبية، لأنها كل متكامل لا يعرف سمينها إلاّ بغثها، فقد شكلت الحاجز الواقي أمام المحاولات التغريبية والإستيلاب الثقافي، بفضل تحصينها ضد الاستعمار الفرنسي وضد الغزو الثقافي المسيحي، ومن مقارنة هذه الممارسات نستنتج أن الممارسة السوسيو ثقافية تخدم أبعاد معرفية متكاملة هي:

- ربط المفاهيم والتطلعات بمعطيات الواقع.
- حصول الفرد على مفاهيم تتناسب مع مفاهيم الجماعة التي ينتمي إليها.
- النظام، الوحدة، التناغم والتناسق.
- روح التنظيم والموافقة والتراتبية.

❖ هوامش البحث:

(1) بوشمة معاشو، **سيدي غانم تراث و ثقافة**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002، ص22.

(2) ا لمرجع السابق، ص22.

(3) رطوالبي نور الدين، **الدين/ الطقوس/ التغيرات**، منشورات عويدات وديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص147.

(4) ا لمرجع السابق، ص 34.

(5) ا لمرجع السابق، ص35.

(6) الميلي مبارك، **الشرك و مظاهره**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص237.

(7) ا لمرجع السابق، ص229.

(8) المرجع السابق، ص229.

(9) بوشمة معاشو، مرجع سبق ذكره، ص13.

(10) المرجع السابق، ص13.

(11) المرجع السابق، ص14.

(12) المرجع السابق، ص15.

(13) المرجع السابق، ص15.

(14) مبروك عقباش وآخرون، **أدرار واحات الفن وقصور الأمان**، الوكالة الفنية للسمعي البصري والاتصال، أدرار، الجزائر، 2013 . ص ص67-68.